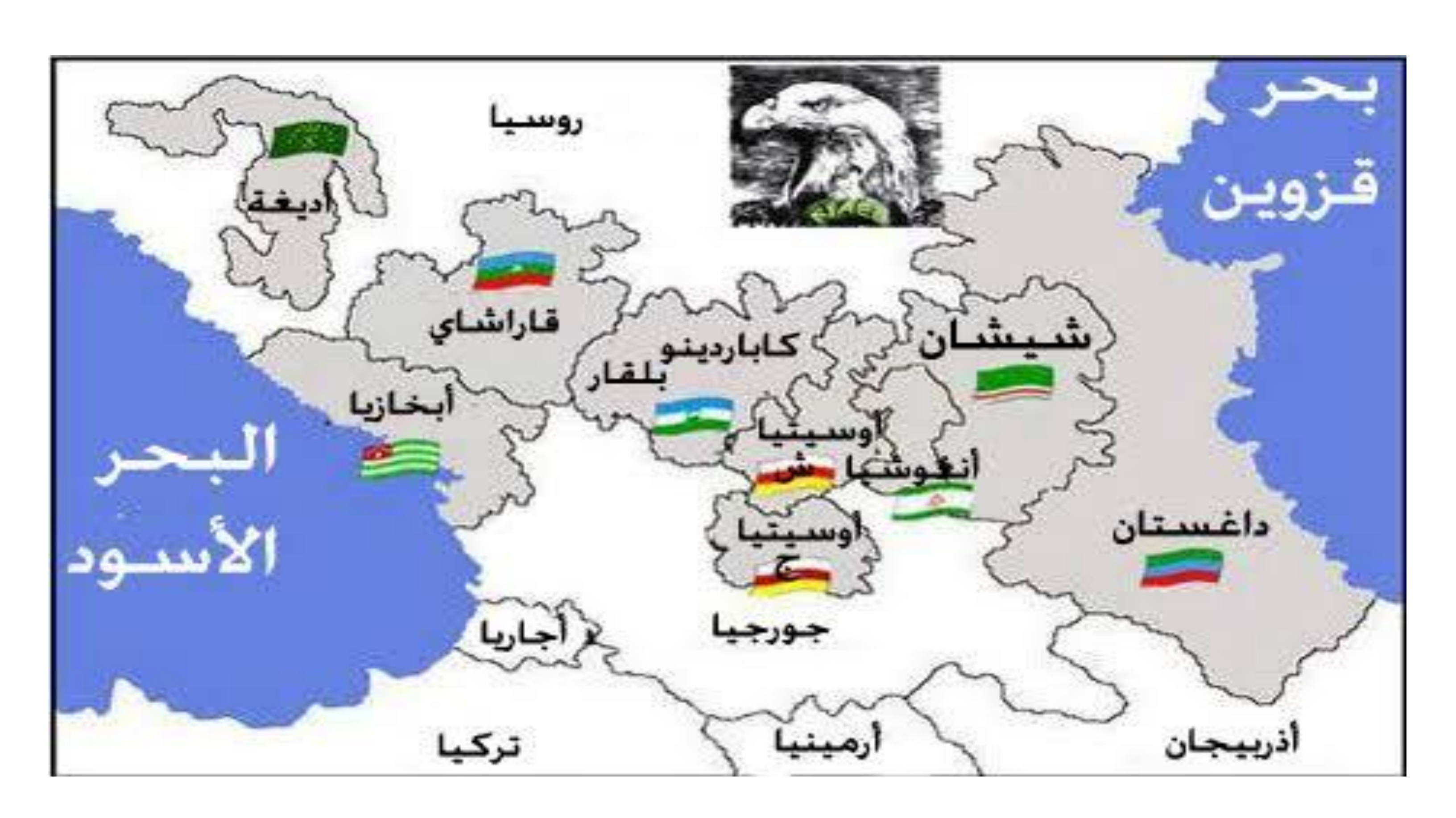
قراءة في ثورات القوقاز

بقلــم/ زيـد بلال



كانت ثورات القوقاز تقوم على المريد المقاتل، جيوش من الصوفية النقشبندية وغيرها في مواجهة الآلة الروسية الجبارة.

الشيخ منصور والملا غازي والملا حمزات والإمام شامل والحجي أذن وعشرات القادة من أمثالهم.

هل نرد جهادهم لصوفيتهم وطرقيتهم؟!

كل متصد للصليب فهو أخونا، برغم كل الخلافات العقدية.
وكل مصطف مع أعداء أمتنا = فهو منهم .. بلا أي تجنّ أو رمي بباطل.

-كثير من الجماعات لا تقبل الآخرين لاعتبارات في رؤوسهم، ماذا سيفعلون في مكونات الأمة الواسعة الرحيبة واختلافاتها المتباينة؟ كيف سيسوسونهم جميعا؟

المتصوفة منتشرون في الأعاجم بكثرة مرعبة كما في الهند وأفغانستان وباكستان والشيشان وداغستان وأنجوشيا مثلا، عشرات الملايين من المسلمين صوفية، وهم بين أشاعرة وماتريدية، وجل علمائهم من متعصبة الأحناف؟ ما هو خطابنا لهؤلاء، وكيف نحشدهم ونستنفرهم لجهاد أعداء الله، الرابض على أراضينا وأراضيهم من عشرات السنين؟

عد أحد منظري "الدولة" وهو أبو عبيدة اللبناني أن من مظاهر انحراف القاعدة أن المجاهدين في شبه القارة الهندية كثير منهم صوفيون ديوبندية!

ضيقو الأفق فقط هم من يعتبرون ذلك انحرافا، بل لابد لنا أن نجمع طوائف الأمة على الجهاد ودفع الصائل، ولو كانوا من أهل المعاصي والبدع.

قال أبو مصعب السوري:
(من أكبر الأخطاء التي وقعنا فيها = أننا حذفنا من اعتبارنا كل الطبقات التي لا تشاركنا أيدولوجيا، والتي كان من الممكن أن يكون لها مساهمة في الثورة).

وقال:
(فنحن لو اقتصرنا على نخبة النخبة لخسرنا، ولكن هذه النخبة

المنهجية يجب أن تكون بالنسبة لنا كما كان أهل بدر وأهل الشجرة والمهاجرون والأنصار بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام.

فمع أن النخبة واجبة في إدارة حرب عصابات = إلا أننا لا يمكن أن نتصور أنه من خلال هذه النخبة، وبهذه النخبة فقط سنحارب).

فالذي تفعله بعض الجماعات من استبعاد عامل الأمة في الصراع = لهو جهل بسنن الصراع وجهل بحقيقته قبل ذلك.
أمة الصليب لن يخرجها إلا أمة مثلها!

تقاتلنا الآن أمتان: أمة الصليب وأمة اليهود، ولذلك لا يصلح أن يجاهدهما صحوة ولا تنظيمات ولا فقاعات صغيرة، وإنما لن يصلح إلا استنفار كامل أمتنا.

لنذهب في رحلة قصيرة إلى جبال القوقاز وسلاسلها الخلابة، مع بنادق وحراب الأئمة والمريدين وغيرهم من مجاهدي الإسلام.

كثير من المسلمين عرفوا الإمام شامل وبعضهم قرأ عن سيرته وغزواته وتصديه للروس، فلنأخذ الإمام منصور الشيشاني رحمه الله مثالا لثورات القوقاز.



الإمام منصور الشيشاني أو الشيخ منصور (1732-1794) يعتبر أول زعيم شيشاني قاد المقاومة ضد حملة كاترين الثانية ملكة روسيا القيصرية في القوقاز أواخر القرن الثامن عشر.

كانت قبائل القوقاز قبله مفرقة مشتتة، يلتهمها الروس بسهولة ويسر، إلى أن قام فيهم هذا الشيخ الجنرال بحق، وقام بجولات عديدة محرضا على قتال الروس، فتبوأ إمامة القوقازيين لمدة تسع سنوات، أقض فيها مضاجع الجنرالات الروس وإمبراطورتهم كاترينا.

كان شيخا محاربا، عالما جنرالا، ملا ورئيس قومه .. انفصلت عندنا هذه المفردات للأسف، وأصبح الشيخ في جانب والقائد في جانب آخر.

والشيخ كان صوفيا على الطريقة النقشبندية، يحفظ القرآن الكريم وعددا كبيرا من الحديث النبوي، وتلقى تعليمه في بخارى، وأصبح خطيبا مفوها، جمع حوله عدة قبائل من شعوب داغستان، والقبارطاي، والنوغاي، بالإضافة إلى الشيشان. وتجمع لديه جيش ضخم، استطاع أن يلحق بالروس هزائم متكررة.

هذا الصوفي العظيم لا يمت إليه أحذية الطواغيت الآن من متصوفة مصر والمغرب وغيرهما بأي صلة.

استخدمت الإمبراطورية الروسية وسائل ثابتة في احتلال القوقاز، من أهمها أن يقوم القوزاق حلفاؤهم النصارى من البدو بإقامة حصن أو مخفر في منطقة ما، ثم تهاجر إليه عائلات القوزاق ويتم شحنه بالمقاتلين والعتاد والذخائر والمؤن، ويتوسع شيئا فشيئا حتى يتحول لمدينة كاملة، تقطع طرق القوقازيين وتهددهم دوما.

فأقاموا أول حصن أمامي على نهر التيريك، وصار هذا الحصن مدينة جروزني العاصمة الشيشانية فيما بعدُ، وخلال حكم إيفان الرابع أو إيفان الرهيب في منتصف القرن السادس عشر قام القوزاق ببناء مجموعة من الحصون في شمال داغستان والشيشان.

ومع بداية القرن الثامن عشر كانت آلاف الأُسَر القوزاقية قد تجمَّعت في الإقليم، وامتزجت مع القبائل المحلية، وتزاوجوا منهم، وإن احتفظوا بالمسيحية دينًا وبالروسية لغة.

فكان القوقازيون يهاجمون هذه الحصون بهجمات خاطفة وغارات باغتة وسريعة، ومن أهم هذه الهجمات التي قام بها الشيخ منصور الهجوم على حصن كازليار أو قيزيل يار، وعندها أرسلت كاترين جيشًا ضخمًا، بقيادة الكولونيل ناجل، استطاع أن يهزم الشيخ في معركة تتار توب في 30 أكتوبر (1785م= 1199هـ) على نهر التيريك، فهزم الشيخ في أول معاركه!

وفي هذا درس عظيم:

من الأوهام التي سيطرت على العقول أن جيل النصر ينتصر في كل حرب ويربح كل معركة، عكس الجيل الحالي الذي لم يُمنَ إلا بالهزائم، ولم يربح حربا ولا معركة قط.

انتصر أهل الإسلام على أهل الصليب في معارك، ثم تلى ذلك هزائم، ثم أعقبه انتصارات أخرى ثم .. إلخ.

لا وجود لمرحلة تربية ثم مرحلة جهاد، هذا حلم جميل لم يحصل قط، بل هناك صائل عالمي يصول على أمتنا كاملة يحتاج لدفع، وفي أثناء هذا الدفع الطويل الشاق ستتربى الأمة ويخرج منها النوابغ في الإعلام والعسكرية والاجتماع والشرع وكل العلوم والفنون، وسيصيبها إخفاقات وانتصارات، وهزائم وفتوح، هذه سنة الحياة.

- عندما بدأت بوادر الحرب تلوح بين الروس والعثمانيين عام (1787م =1201هـ)، استنجد الأتراك بالشيخ منصور فلبَّى النداء، وظهر فجأة بين الشراكسة في الغرب، الذين التفُّوا حوله وقاموا بمهاجمة القوات الروسية من الخلف، وفي الذكرى السنوية لمعركة تتار توب هاجم الشيخ ومعه الشراكسة ثلاثة أفواج من قوازق الدون وأبادوهم.

وفي سبتمبر عام (1787م= 1201هـ) هاجم الروس قلعة "أنابا" على ساحل البحر الأسود، فقام الشيخ منصور بالهجوم على الروس من الخلف في منطقة أوبون، وقتل ثلاثة آلاف جندي روسي في هذه المعركة، وعلى إثر هذه الهزيمة عُزل الجنرال توكالي، وَحَلَّ محله بيبكوف، وأيقن الروس أن احتلال "أنابا" لن يتمَّ إلَّا بهزيمة الشيخ منصور أوَّلًا.

ما الذي يحدث الآن في بلاد القوقاز..؟!

الذي يحدث لو امتدت الثورة وطال الصراع المستمر فإن ذلك كفيل بخلق ثقافة حربية وجيل مقاتل يحملها .. إن الصراع يخلق أعداء ذوي شأن.

إن الصراع إذا طال فإنه يفرز قادته الحقيقيين بسلاسة ويسر.

إن القضاء على الثورة القوقازية التي يقودها "منصور" تمنع من تكوين الثقافة الحربية اللازمة والجيل المقاتل الذي يحملها.

لم تترك الجاهلية الدولية كالأمريكان وأضرابهم أي محاولة بدء تكوين جيل مقاتل، جاهليا كان أو إسلاميا = إلا وأفشلوها .. وأظهر الأمثلة على ذلك:

1- جيل حرب أكتوبر-بغض النظر عن نتيجة الحرب-، فمع كونه جاهليا لا يمت لمقاصد الإسلام من القتال بحال ولا صلة، إلا أنهم تخوفوا على مصالحهم منه، فقام عملاؤهم المصريون بوأد هذه البذرة الجاهلية بسلاسل كامب ديفيد والسلام وملحقاتهما وأخواتهما ونشأت الأجيال التي لا تعرف عن الحروب والصدامات الأممية إلا اسمها، وضرب الترف المؤسسة العسكرية المصرية، وأضحت: الشركة المساهمة العسكرية المصرية!..

2- جيل التجربة الأفغانية في جهاد السوفيت (1979-1992)، أي: مليشيات الأفغان التي بلغت مثلا في جيش حكمتيار وحده لمائتي ألف مقاتل (200 ألف)، وزرعوا بين الإخوة الأعداء الشقاق، وتم استقطابهم بين عدة دول كالولايات المتحدة وإيران وباكستان، حتى ضاع هذا الجيل وتاه.

3- جيل "الأفغان العرب" الذين زادوا عن 30 ألفا من المقاتلين، ومئات الدورات العسكرية والشرعية والاستراتيجية، حتى اعتبرهم أبو مصعب السوري قد أتخموا من فرط الدورات العسكرية وقامت قوانين الإرهاب، وإغلاق الملاذات الآمنة والهوامش الإقليمية، وسياسة تجفيف المنابع، والتحالفات الأمنية = بالتكفل بهذا الجيل وزجه في أخاديد السجون والمعتقلات والإعدامات حتى تلاشى أو كاد!..

لم يستفد الأتراك من ثورات القوقازيين المتواصلة أي استفادة، بل تركوا لمصيرهم المحتوم في مواجهة الآلة العسكرية الروسية الجبارة.

بل لو حسبناها بمنطق مادي محض فإن القوقازيين هم حائط الصد الأخير أمام الروس لالتهام أراضي العثمانيين .. ولو عاملوهم كما عامل الروس القوزاق لأوقفوا الزحف الروسي نحوهم.

ماذا عليهم لو وفروا لهم عددا من جنرالات الجيش التركي وضباطه مع كميات وفيرة من الذخيرة والبارود والمؤن والمال .. هذا لا يكلف الخزينة التركية شيئا أصلا.

بل كانوا يعاملون القوقازيين باحتقار رهيب وبجفاء وعجرفة كما حصل مرارا.

ودونك ما حصل بين الشيخ منصور وبطال باشا الجنرال التركي في ميناء "أنابا"؛ فقد قام بطال باشا بمعاملة الشيخ منصور ومتطوّعيه من الشيشان والشراكسة بجفاء وعجرفة عندما قَدِمُوا للترحيب به، ونتيجة لهذه المعاملة غير اللائقة غادر الشيخ منصور ومتطوّعوه أنابا بعد أن أرسلوا شكوى إلى السلطان العثماني.

ونتيجة لإلحاح السلطان العثماني والشراكسة، عاد الشيخ منصور إلى أنابا للدفاع عنها، وفشل الجنرال الروسي بيبكوف في احتلال أنابا، وتمَّ استبداله بالجنرال بيلمان، وبتنسيق مع الأتراك خرج الشيخ منصور من حصن أنابا ومعه مقاتلوه لمهاجمة قوات الجنرال جيرمانيين أحد مساعدي بيلمان، وجرت معركة كوبيروسكوي.

ولم يستطع الروس دخول أنابا إلا بعد الاتفاق مع القائد التركي على ترك أنابا مع أتباعه فحصل فعلا وتركوا الشيخ منصور ورجاله وحدهم في الدفاع عنها حتى سقطت في النهاية.

خسر الإمام منصور الشيشاني أول ثلاث معارك مع الروس آخرها لما هاجمت قوات الكولونيل بييري قرية الشيخ نفسها "آلدي."

نعم قتل الكولونيل ومعه سبعة ضباط آخرين، إضافة إلى ستمائة جندي، وغنموا الأسلحة التي كانت بحوزتهم، ومن ضمنها اثنا عشر مدفعاً.

لكن قرية الشيخ تمت تسويتها بالأرض وقتل من الشيشانيين عدد كبير جدا .. فلا تعرف هل تحسبها خسارة للشيخ أم هزيمة منكرة للروس!

الغريب في الأمر بعد ذلك أن الشيخ قد أكمل مسيرته وبدأ يحشد قواته مرة أخرى ونقل قاعدة العمليات لمكان آخر.

ولسائل أن يسأل:

قد جربتم كثيرا نفس الطريق وهو طريق الجهاد والقتال العبثي للأنظمة وثبت فشله، فالواجب عليكم أن تراجعوا أنفسكم، وتغيروا مسلككم.

فيقول قائل:
الطريق لتغيير الواقع هو التربية، وقيام جيل كامل من المربين بتهيئة الأمة، ونشر التدين في جنبات المجتمع بالأربطة العلمية والمراكز البحثية وغيرها، ثم نغير الحكم إلى حكم إسلامي!

وآخر يزعم:
لماذا لا يفعل منصور مثل بعض قبائل القباردي والنوغاي التي سالمت القيصرة وحافظت على حياة أبنائها من القتل وقراها من الدمار.

لماذا لا نسالم الأنظمة ونعمل ضمن المتاح ولا نبحث عن المفقود بل ونشارك سياسيا في الانتخابات وندخل البرلمان ونعمل بهدوء من الداخل في تغيير المجتمع..؟

فنقول:

طريقة التغيير هي طريقة سننية واحدة يطرقها المسلم والكافر، لكن قد تخطئ وتفشل لا لخطأ المنهج، وإنما لضعف موضوعيته.

ما هي المناهج وسبل التغيير التي مارسها أهل الإسلام للخروج من التيه فثبت خطؤها وتبين عوارُها، حتى تطرحوا هذه الطريقة العجيبة؟!

هل يترككم الطاغوت تربون جيلا كاملا على مفاهيم الإسلام الخاصة، وتنشرون التدين في المجتمع، وتقوضون بنيان دولته، وتمسحون مفاهيمه التي يبثها في الناس، هكذا بكل سهولة وسلاسة ويسر، ثم بعد ذلك تزيلون حكم القوانين والجاهلية وتقيمون حكم الإسلام، أم سيقوم وحده، أم ماذا؟!

هذه مخادعة مفضوحة غير واقعية، وإن كانت براقة جميلة تجذب الأنظار.

قد حاول أهل الإسلام إخراج الصليبيين لمدة مائتين من السنين، وعشرات الملايين من القتلى والجرحى والمشردين، ثم نجحوا في نهاية الأمر بنفس المنهج ونفس آلية التحرك، ولم يكونوا يفشلون لخطأ الطريق، بل لضعف موضوعيته.

وحاول أهل الصليب احتلال بلاد الإسلام كاملة لعدة قرون، وإخضاعها بالقوة والقهر ومنها فترة الحروب الصليبية وما بعدها حروب الاستعمار، ثم نجحوا في نهاية الأمر بنفس المنهج وآلية التحرك، ولم يكونوا يفشلون لخطأ الطريق، بل لضعف موضوعيته.

التربية مرحلة موافقة للفعل لا سابقة له، وهذا منطق الحياة حتى، فأنت لا تمنع ابنك من الاختلاط بالناس والذهاب للمدرسة حتى تربيه، بل تربيه خلال الاختلاط بهم والذهاب للمدرسة.

الأمة لم تتوقف عن الجهاد لكي تنشئ جيلا تربويا كامل الصفات، بل جاهدت وقاتلت قتال دفع وطلب ، وهي في ظل هذا تربي وتعلم ويخرج منها الصالح والطالح، هذا هو منطق الأشياء وسنن الكون.

مفتاح المشاركة السياسية بيد النظام لأنه نظام احتلال لكنه عربي الجنسية فقط، وليس من طريق في مواجهته إلا: الوعي والمقاومة، لا الكفاح الدستوري والمشاركة السياسية ... إلخ، فهذا وهم وخرافة.

ولم تتحرر أمة أبدا من الاحتلال بمثل هذه الطرق!

ولعلمك قد قضمت قوات الإمبراطورة القبائل العميلة الخائنة وأراضيها بعد ذلك ولم يتركوهم في حالهم.

وبصورة أخرى لم يشفع للإخوان دخول البرلمانات ولا المشاركة السياسية في شيء وأقامت لهم الأنظمة المذابح المروعة والاعتقالات الطويلة ولم ترحمهم.



نهاية ثورة الشيخ منصور الشيشاني:

خلال المعارك الدائرة بينه وبين الروس سقط الشيخ منصور جريحًا، فأسره الروس، ونقلوه إلى الإمبراطورة كاترينا، التي رغبت

في رؤية هذا الشيشاني، الذي كان مصدر إزعاج دائم لها منذ عام (1199هـ= 1785م)، ثم أُودع السجن في شليسبرغ، ويبدو أن هذا الأسد الهادر لم يستطع تحمل مرارة السجن فقُتل هناك، بعد أن قتل الجندي المسئول عن حراسته.

وبذلك سقط الشيخ منصور الشيشاني شهيدًا في (رمضان 1208 هـ= 13 أبريل 1794م) بعد تسع سنوات من الجهاد المتواصل.

بمنطق المخذلين المعاصرين فإن هذا الرجل وسيرته بل وحتى سجنه كان حالة من الجنون المتواصل.

هؤلاء المخذلون لو كانوا مع المعتقلين في جوانتانامو أو غيرها من معسكرات التعذيب والاعتقال = لثبطوهم تثبيطا كبيرا، بمذهبهم هذا.

فقضية إلقاء المصحف على الأرض وإهانة القرآن = معروفة، ذكرها غير واحد من المعتقلين هناك كوليد الحاج وعبد الرحيم دوست الأفغاني، وغيرهما.

وكان رد فعل المعتقلين على ذلك عنيفا جدا، يقول صاحب "القيود المحطمة:"
(كان الأسرى يقومون بالمظاهرات والإضراب عن الطعام في موارد كثيرة، ولكن في مسألة إهانة القرآن قام المخيم كله بالمظاهرات بكلمة واحدة وصوت واحد).

ويقول:
(صبُّ الماء والبول والبصاق على العساكر، والإضرابات، والكفاحُ مع الغازات الدامعة، والضرب والتعذيب وغيرها ... أمور تمثل جرأة

الأسرى وشجاعتهم. وفقني الله تعالى وأخي الأستاذ بدر الزمان في مظاهرات الدفاع عن القرآن الكريم حينما

أهانوه، أن نخرج على عساكر الشعب الذين يبلغ عددهم إلى اثني عشر جنديا مثل الجاموس، فصرع كل منا واحدا واحدا).

وذكر وليد الحاج في حلقاته مع أحمد منصور التي بثتها "الجزيرة" أنه كان من الذين وضعوا الغائط -أعزكم الله- في كأس ورماه على جنرال كبير، أثناء زيارته لجوانتانامو، احتجاجا على إهانة القرآن الكريم، وسُجن بعدها في الانفرادي شهرا.

أما مذهب: ده هيضربوكم أكتر، دول أقوى منكم، هتعترض على إهانة المصحف هيزيدوا في الإهانة، هتقتل ضابط هيقتلوا عشر مسجونين ولاماية، اقعد مكانك، متعملش حاجة إلخ=
فلو كان هناك من يحمله لثبطوا الهمم، وأوهنوا العزائم، وأماتوا الضمائر الحية، وقتلوا الفطر المستقيمة.

خاتمة:

ربما نحن لا نملك وجودا سياسيا على أرض الواقع متمثلا في دار الإسلام أو حتى إمارة أو دولة.

لكن بعد حقبة التيه التي عاشها المسلمون منذ سقوط الخلافة وتفتت الوحدة السياسية الإسلامية؛ بما يمثله ذلك من انهيار كافة العقد المنظوم

قامت كثير من حركات الإسلام لاستعادة هذا الوجود وتمثله بصورة مصغرة؛ "جماعت إسلامي" للمودودي في القارة الهندية و"الإخوان المسلمون" للبنا في بلاد العرب، وغيرهم ممن حذا حذوهم.

كلٌّ يطور نظريته الخاصة في التعامل مع الواقع الجديد، منشئا سرديته الكبرى ورؤيته الكونية ومنهجه ومعالم وجوده.

إن اكتشاف وضع جديد هو جزء من وظيفة الفكر السياسي، وللأسف فقد أخفق الفكر السياسي الإسلامي السائد الذي يتبناه جمهرة المعاصرين؛ بسبب تسميمه وتطعيمه بالنظريات القومية أو الغربية وروحه المعلمنة والمؤدلجة.

وعدا قلة معزولة من حركات الجهاد في الهند والقوقاز وخراسان وشمال ووسط أفريقيا كانت ردة فعل المسلمين على العدوان الغربي هزيلة في أحسن الأحوال أو معدومة في أكثرها.

ولم تكن لأكثر هذه الحركات نظرية سياسية تفهمهم واقعهم وتضع أيديهم على مرتكزات الحركة ومعاقدها الأساسية.

وقد قال صاحب "موجز تاريخ مصر في الحقبة العلمانية" (1986-1809:(لم يطور المسلمون فكرا لمواجهة المرحلة، واقتصرت أساليبهم على معالجات جزئية (الوهابية) أو على المقاومة المستميتة ضد الهجمة الغربية (السنوسية، الجهاد الإسلامي في الجزائر، عبد الكريم الخطابي، الشيخ شامل في القوقاز، ساموري غي غرب أفريقيا، أحمد بن آبراهيم في شرق أفريقيا).

وقد أثبتت أحداث التاريخ أن حركة مقاومة قامت لمجرد المقاومة لن يكتب لها الاستمرار!

انتهى.